4.الحرف والصنائع

استطاع الإسلام بمنهجه أن يجعل من كل صانع فنانًا في صنعته يبذل في تحسينها كل مهاراته العملية مشفوعة بفكره وإيداعه وبهذا كان الجمال لغة متداولة يتعامل بها كل الناس وليس طبقة واحدة، وأصبح كل صانع يشعر بلذة الإبداع الفني كما يشعر بها أي فنان مبدع. ومن هذا الشعور الرفيع كان ذلك العطاء العظيم الذي نتحدث عن بعض جوانبه.

ونظرا لإبداع الصانع المسلم في حرفته صارت تُعرف بالفنون التطبيقية بأنها الفنون التي دخلت بوصفها عملية تجميلية لحوائج مرتبطة بحياة الإنسان اليومية كالخزف والزجاج والنسيج والسجاد والزخرفة الخشبية، وهي مما يستعمله الإنسان في شتى أموره، من لباس وفرش وأدوات مأكل ومشرب ، وصناديق لحفظ الحاجيات ، وهذا النوع من الفنون يعد في مقدمة أنواع الفن الإسلامي، فهو أساس في تجميل كل ما له صلة بالإنسان من متاع، مما أمّن له انتشارًا واسعًا بين الناس، واتصالًا وثيقًا بدنيا الناس، فلا يظل قاصرًا على طبقة معينة أو فئة محدودة.

وتُعدّ هذه الفنون فنون تطبيقية لنظرة الإسلام الجمالية الشاملة التي جاء بها المنهج الإسلامي ودعا إليها. ويمكن تفصيل الحديث عن أنواع فنون الحرف والصنائع بما يأتي:

1- الخزف

تعدّ المصنوعات الخزفية أبرز أنواع الفن الإسلامي و في مقدمة التحف الفنية المتوفرة بين الأيدي في الوقت الحاضر، فهي كثيرة العدد، متنوعة المواضيع، لا يكاد يخلو منها بلد إسلامي.
" الخزف طين مشوي بأشكال مصبوبة، أو مُشكَّلة مغطاة بدهان براق أزرق وأخضر، أو بدهان ذي بريق معدني بإضافة أملاح الحديد والأنتيموان إليه". وكان مما عمل على انتشار هذا الفن، عامل "الالتزام": فقد حرّم الإسلام استعمال أواني الذهب والفضّة، وكذلك ما طلي بهما، ولذا كان هذا الاتجاه تحقيقًا لهذا المعنى، وكان الخزافون المسلمون هم أول من اخترع البريق المعدني في زخرفة الخزف. ويعتقد أن ابتكاره تم في العراق، ولكنه نضج وأصبح لونه ذهبيًا منذ القرن 3هـ ، ومن المراكز التي اشتهرت بصنع الخزف "قاشان" وإليها تنسب صناعة بلاط القاشاني، وسامراء والموصل والرُصافة في العراق والرقّة في سوريا، والفُسطاط في مصر، ومالقة في الأندلس.

2- الزجاج

صناعة الزجاج أحد أنواع الفن الإسلامي، وهي صناعة قديمة في سوريا ومصر، وهناك قطع ترجع في تاريخها إلى القرن 3هـ ، وقد بلغت صناعة الزجاج قمتها في مصر وسوريا في القرن 6هـ، وكان من مراكز النشاط فيها حلب ودمشق والفسطاط والإسكندرية. وقد أخذت الزخرفة والحفر مكانها بالنسبة للزجاج، شأنها في ذلك شأن بقية المصنوعات، واستعمل الطلاء بالمينا من حمراء وزرقاء وخضراء.

3- الزخرفة على الخشب

كانت مادة الخشب ميدانًا لعمليات تجميلية متنوعة، سادت في كثير من البلدان الإسلامية، وكان الحفر على الخشب إحدى هذه الأساليب التجميلية، كما استعملت الحشوات للحصول على أشكال هندسية متنوعة في مقدمتها المضلعات المنبثقة من أشكال نجمية، وكثيرًا ما كان الخشب يطعم بالعاج وغيره. وقد استعملت الحشوات في الأبواب والمنابر، واستعمل الحفر والتفريغ في التحف، كما استعمل التطعيم في الصناديق وبعض الأبواب والكراسي.

4- النسيج والسجاد

ارتبط النسيج بحاجة الناس العامة له، فكثرت مصانعه والعاملون فيه تلبية لتلك الحاجات، حتى برز كنوع من أنواع الفن الإسلامي، وخُصّ بعناية الفنانين والنسّاجين، فقد أنشأت بعض الدول المسلمة دورًا خاصة تشرف عليها الدولة، مهمتها إنتاج الملابس لبيت الخلافة، وقد أطلق على هذه الدور اسم دور الطراز، وقد خصص ابن خلدون في مقدمته فصلًا تحت هذا العنوان بينَّ فيه مهمة هذه الدار وقرب المسؤول عنها من الخليفة، كما بينَّ أن وجودها ارتبط بعهود الرفاهية. وقد اشتهرت بعض المدن في إنتاج أنواع معينة من المنتوجات، فعرفت دمشق بصناعة النسيج الحريري السميك المعروف بالدامسكو أو الدمقس، واشتهرت بغداد والموصل بنسيج حريري ناعم عُرف بالموصلين، وتعددت مدن صناعة النسيج بمصر، وفيها كانت تصنع كسوة الكعبة وتطرز. وكان لكل بلد أسلوبها في الزخارف التي أدخلتها على نسيجها، ففي إيران انتشرت الزخرفة بالزهور والفروع النباتية، وكذلك في تركيا. كما أدخل الخط كعنصر تزييني في بعض ما أنتجته دمشق ومصر، وغالب هذه الكتابة عبارة عن جمل دعائية مثل: سعادة دائمة.

من أقدم ما وصل إلينا من النسيج الإسلامي" قطعة من النسيج من موجودات المتحف الإسلامي بالقاهرة، مصنوعة من الكتان، وعليها نص تاريخي يقول" بسم الله، بركة من الله لعبد الله الأمين أمير المؤمنين أطال الله بقاه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يد الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين

أما صناعة السجاد فقد انتشرت في أماكن متعددة من العالم الإسلامي مثل تركيا وسوريا ومصر، وتعتبر إيران بلدًا لا يُجارى في هذه الصناعة، التي وصلت إلى ذروتها في القرن 10هـ؛ حيث أنتجت أنماطًا لا تضاهيها أنماط أخرى في جمالها وسحرها، وقد كانت أصفهان، وتبريز، وشيراز، وقاشان، وهمدان، أهم المدن في إنتاج هذه الصناعة.

5- فنون الكتاب

بدأت فنون القرآن بفن الخط، ثم تبعته عملية تجميلية لكتابة القرآن، وعرفت كنوع من أنواع الفن الإسلامي، وهي التذهيب، ثم تلوين الفواصل بين السور والآيات، ثم إضافة الرسوم والأشكال إلى موضوعات الكتاب، ثم جاءت عملية التجليد كنوع ختامي من أنواع الفن الإسلامي الخاص بالقرآن الكريم، وكعملية ختامية لإعطاء الكتاب شكله النهائي، حيث يُسعى إلى الجمال والمتانة، وكان الجلد هو المادة المستعملة في التجليد ثم استعمل الورق المقوى وغيره. وقد أتيح للزينة أن تأخذ مكانها على هذا الجلد، فبذل الفنان قصارى جهده في إخراجه بالشكل الذي يجذب البصر ويستهوي الإعجاب.

6- الزخرفة بالمعادن

تعتبر التحف المعدنية التي يرجع تاريخها إلى العصور الإسلامية الأولى حلقة وصل بين الطراز الساساني والطراز الإسلامي.
ولقد اشتهرت مدن كثيرة من بين المدن الإسلامية على مر العصور بمصنوعاتها المعدنية، من مختلف المواد التي توفرت بها ، كما تنوعت بها طرق الصناعة ،وأساليب الزخرفة، وكان الذهب ،والفضة ،والنحاس الأحمر؛ أهم المعادن استخداما في الفنون الإسلامية.
ولقد اشتهرت صناعات يدوية في عصور الدول الإسلامية الأولى، كالثريات، وصناديق للمصاحف، وشمعدانات ؛ من آثار استعملت فيه مختلف الأساليب الفنية من زخرفة المعادن ،ومن تكفيت بالفضة والذهب ،وتصفيح ،وحفر، وتثقيب "تخريم" ،ومن هذه المصنوعات ما قصد به الاستعمال المنزلي مثل الصواني، والأباريق ،والطسوت، والمباخر.
إهتم الفاطميون بفن تشكيل المعادن من أدوات معدنية ،وحلى ذهبية ،وفضية متنوعة ، بل لقد وصل إلينا شيء من هذه التحف ،من ذلك مشبك من الذهب ،عثر عليه في أطلال الفسطاط ،عليه كتابة كوفية نصها (فالله خير حافظا)، وهناك قطع أخرى مصنوعة بمشبكات دقيقة من الأسلاك في هيئة وريقات شجر، ومن أهم الموجودات طست نحاس مكفت بالفضة باسم السلطان نجم الدين أيوب، وعليه رسوم تمثل لعبة الكرة والصولجان، وهو موجود بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة اليوم.
أيضا يوجد عدد من الأباريق النحاسية المكفتة بالفضة، والغنية بزخارفها البديعة، ومن أجمل التحف المعدنية : مبخرة تحمل كتابة باسم السلطان العادل الثاني موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق..
وقد تميز العصر المملوكي بكثرة الكتابات العربية على المعادن والأواني وذلك بأغلب أنواع الخط من كوفي، ونسخ، وزخرفي ، وخط الثلث وغيره.

المراجع المعتمدة:

1. الفن الإسلامي عفيف بهنسي،دار طلاس للنشر دمشق ط.2 1998.
2. جمالية الفن العربي. د. عفيف بهنسي سلسلة عالم المعرفة،الكويت، كتاب – 14، فبراير 1979
3. الفن الإسلامي. أبو صالح الألفي بيروت (لبنان):دار المعارف 1984
4. تاريخ الفن عند العرب والمسلمين. أنور الرفاعي دار الفكر-دمشق/دار الفكر المعاصر-بيروت ،ط.2 ، 1977
5. تراث الإسلام ، إشراف (توماس ارنولد) ترجمة جرجيس فتح الله. المطبعة العصرية بالموصل 1954 ج 2.
6. الفنون الاسلامية ،م.س.ديماند،ترجمة أحمد محمد عيسى،دار المعارف القاهرة،ط.3 1982.